التربية العاطفية في مذكرات إدوارد سعيد

د. عبد المالك أشهبون

عندما نطأ عتبة موضوع التربية العاطفية في الثقافة الغربية، يتبادر إلى الأذهان مباشرة اسم جوستاف فلوبير (Gustave Flaubert)، من خلال مؤلفه الشهير: **التربية العاطفية** (*L'Educationsentimentale*)، مروراً بالسلسلة الشهيرة رواية الوردة (Roman de la rose) التي دشنها الكاتب المرموق كيوم دولوريس (Guillaume de lorris)، وصولاً إلى كتابات كل من مارسيل بروست، وأندري بروتون، وبوريس فيان، وجيمس جويس ... فأغلب هذه الأعمال الأدبية كانت تحكي، أو تجعلنا نعتقد أنها تدور بالأساس حول موضوع «التربيات العاطفية»، بمعنى آخر: التربية بواسطة العاطفة. فالقصة في نظير هذه المواضيع تتلخص عادة في لقاء رجل وامرأة، يتحابان ثم يتخاصمان وأخيراً يفترقان ....

غير أن ما يبرر انتشار رواية التربية العاطفية على نطاق واسع، هو أنها كانت تشكل -في فترات زمنية محددة من التاريخ البشري- قوة رمزية فرضها نموذج تصور العلاقة بين الرجل والمرأة، وذلك من أجل تمرير طرائق وأساليب لنموذج التربية العاطفية المأمولة ....

والمتتبع للشأن الثقافي العربي برمته، سيلاحظ فتوراً كبيراً في إيلاء هذا الموضوع ما يستحقه من العناية والتركيز، ربما لأسباب لها صلة بطبيعة الموضوع الذي يصنف في مجال الطابوهات، التي ما زالت تحط بكلكلها الثقيل على عاتق الثقافة العربية برمتها ... فأن يحكي الكاتب عن تربيته العاطفية، يقتضي منه ذلك الفعل الجريء لحظات من التردد والارتباك والحيرة، ترتعد فيها الأصابع وهي تخط الجمل الأولى في رحلة استكشاف حقيقة الذات، التي يراد لها أن تتعرى أمام الآخر. ربما كان الالتباس سبب هذا الفشل، وبخاصة حين يحاول المرء فتح «دفتر العمر»، واستعادة كل من

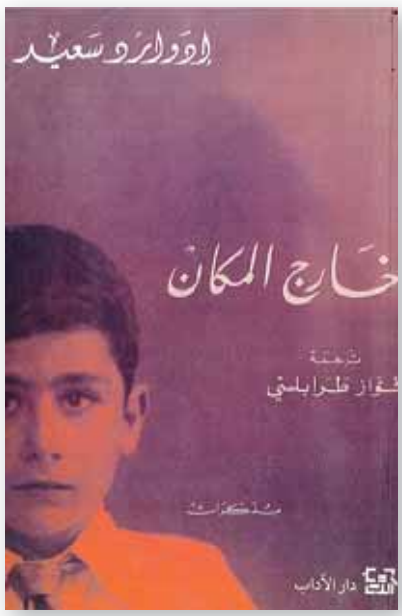

غلاف كتاب **خارج المكان** تظهر فية صور فوتوغرافية لإدوارد سعيد وهو طفل.

تركوا ذكريات فيه، أو خلّفوا جراحاً لا تكون قد التأمت بعد مع مرور الأيام.

ولقد بات من المألوف أن الكلام في موضوعات الجنس والدين والسياسة، لا يزال في بلداننا العربية محظوراً بهذه النسبة أو تلك. فإذا كانت هذه الإكراهات تطول بعض الكتابات التي يصرح أصحابها -علناً- بأنها تندرج في نطاق الخيال (روايات، قصص، مسرحات ...)، فما بالك إذا جاء الكلام في صيغة اعترافات، أو يوميات، أو مذكرات!؟

فالسيرة الذاتية التي تعلي من شأو البوح غير منتشرة على نطاق واسع، بسبب عدم توفر شجاعة المواجهة في وطننا العربي؛ إذ إن معظم الكتاب يحجمون في الكشف عن حياتهم السرية لما في ذلك من صدمة للأقارب والقراء معاً، لذا نرى أن هذا النوع من الكتابات في عالمنا العربي لم يبلغه إلا عدد نادر من الأدباء العرب،

وأول رواده: محمد شكري في روايته الشهيرة: **الخبز الحافي**، وهي الرواية التي ظلت ممنوعة ردحاً من الزمن في معظم الأقطار العربية، لما فيها من كشف صادم للحياة السرية للأديب ... .

من هنا، تحفظ الكثير من الباحثين تجاه السير الذاتية التي كتبها عدد من كبار الأدباء العرب (السيرة الذاتية من المنظور التقليدي)، لأنها في نظرهم ليست سيراً ذاتية، بالمقارنة مع ما تتسم به السير الذاتية في الأدب الغربي، من جرأة وجسارة وعمق في البوح، حتى غدت لهذا النوع من الكتابات جمالية من نوع خاص، تتعلق بطبيعة هذه الآثار التي يخطها الكاتب، وهو بصدد حكي جوانب الذات الحميمة، إلى درجة يمكن القول معها: إن محكي الذاكرة ما هو إلا محكي ذاكرة الأحاسيس والعواطف بامتياز ... .

1. أقصى درجات البوح في كتاب «خارج المكان»

القارئ المتفحص لكتاب **خارج المكان** لإدوارد سعيد، سيلفيه -لا محالة- نصاً غنائياً، جميل الصنعة، ويبلغ أحياناً درجات من الصراحة، حيث يكشف فيه إدوارد سعيد دقائق ماضيه الشخصي، ويستعرض الأفراد الذين كوَّنوا شخصيته ووسموها بميسمهم الخاص، ومكَّنوه، بالتالي، من أن ينجح في مسار حياته المهنية والشخصية، ليصبح -بعد ذلك- واحداً من أبرز مثقفي عصرنا الحاضر. فقد كان جوابه الثابت على مشقات مرضه المتزايدة هو الإكثار من الاستذكارات، ومحاولات إحياء نتف من حياةٍ عاشها، أو استحضار شخصيات غابت عن بصره لكنه يستدعيها هذه المرة عبر بوابة ذاكرته الموشومة ... .

أما عنصر الجِدَّة في هذه المذكرات، فيكمن في درجة البوح التي يصلها الكاتب، على الخصوص في أمور تتعلق بتربيته العاطفية، ومغامراته السرية، وعلاقاته الغرامية ... ذلك أن جرعة البوح1 قوية في هذا الكتاب، وهذا ما دفع بصديق لإدوارد أن صرح له: «إن بعض ما ورد في كتابي لا يُسِرّ به إلا لطبيبه النفساني. وأنا طبعاً مدرك أن الكتابة الصريحة عن الذات نادرة في تراثنا. وإني آمل أن يسهم هذا الكتاب في تنمية هذا التقليد».[2]

من هنا وجب التنبيه -حسب إدوارد سعيد- مسبقاً وقبل كل شيء، إلى أنه «لا يزال العديد من الأشخاص الوارد وصفهم هنا على قيد الحياة، ولعلهم سوف يخالفونني تشخيصي لهم وللآخرين، بل قد يستاؤون منه (...). وأرجو أن يكون واضحاً أيضاً، أني، بصفتي راوي هذه السيرة، وواحداً من شخصياتها، لم أُعفِ نفسي قصداً من السخرية ولا من الروايات المحرجة».[3]

فهل سيشذ هذا الكتاب عن النمط السائد في الكتابات الذاتية بجعل الذات أكثر قدرة على الخروج إلى العالم الخارجي ببهاء عريها؟ وهل سيفتح الكاتب أمامنا تلك الدهاليز المقفلة المعتمة التي عادة ما تكون موضوع تكتم شديد؟

2. التربية العاطفية من المنظور التقليدي

يمكن القول إن هذه الأعمال الاستعادية التي تُروى بضمير المتكلم، والتي تقدم على أنها سير ذاتية أو تدور في فلكها، هي روايات في التربية العاطفية أو الاجتماعية، بدرجات تتفاوت بتفاوت درجات البوح والاعتراف من كاتب لآخر. وهنا نجد شخصية إدوارد سعيد

مستلة من كتاب **خارج المكان** ويصفها إدوارد سعيد كما يلي «صور عائلية لآل سعيد وآل منصور، أبناء خؤولة أبي من الدرجة الثانية. التُقطت قبل تفرقنا جميعاً امام منزل آل منصور، حوالي 1946- 1947».

الكهل والمنهك بألم المرض الخبيث، يحكي عن الاضطرابات النفسية والعاطفية التي عاشها، متصوراً أنه بهذا المحكي يستطيع أن يبلغنا ماهية هذه الاختلالات العاطفية، وطبيعتها، وبالتالي كيفية التغلب عليها من خلال طريقة تعامله معها، ومعها يخبرنا كيف أصبح ما هو عليه الآن بعد رحلة العمر الطويلة ... .

لا بد من التأكيد، في هذا المضمار، على الارتباط الوثيق بين اللحظة الحاسمة في تاريخ تطور شخصية إدوارد سعيد المراهق على المستويات النفسية والجسمية والذهنية كافة، وبين لحظات القلق التي تلازمه، والناتجة أساساً عن الحرمان الذي يعانيه في مجال التربية العاطفية، على الخصوص إذا كانت هذه ناتجة عن طبيعة التربية التي يتأطر في خضمها: تقليدية المظهر والمخبر معاً ... .

فقد تعوّد الإنسان العربي أن يعيش فرديته مخاتلة لا مجاهرة («وإذا ابتليتم فاستتروا»). يمارسها سرقة لا انتزاعاً، ويظل يعيش ممارستها كخطيئة لا كحق طبيعي. ومرد ذلك التربية السلطوية الزجرية التي يتلقاها الفرد في محيط مسيج بالممنوعات والمحرمات، وهي تربية لا تنمي الاستعداد للمجابهة والمواجهة بقدر ما تشجع على المراوغة والتحايل والكذب. لأن فرداً ينشأ داخل هذا الحصار المشدد، «سيتعلم منذ الصغر التفنن في طرق المراوغة والمخاتلة ومحاولات بلوغ إرضاء الرغبات سراً، في الوقت الذي يسعى فيه إلى الظهور بمظهر النموذج المنضبط لقواعد السلوك المرضية التي توفر عليه العقاب وتجلب له المكافأة.[4]

هناك مجموعة من العوائق التي تعوق هذا المسار العاطفي السليم في حياة إدوارد سعيد: هناك الأسرة التي تمارس ضغطاً كبيراً على الفتى، والتربية الدينية، والخطابات الاجتماعية التي تريده أن يظل عفيفاً وراهباً أكبر مدة ممكنة ... كل ذلك يؤكد قوة الانتظار الطويل للمراهق من أجل تحقق رغباته العاطفية المؤجلة إلى أجل غير مسمى.

وهذا ما يعترف به إدوارد، إذ يصرح أن المسألة الأساسية في حياته وقتذاك كانت هي الجنس، أو بالأحرى «الحظر الذي ألقاه أهلي على تدخلهم في حياتي، وتعطيلهم لمفاعيله حين لم يكن بمقدورهم طرده منها. تصورْ أني حين غادرت الولايات المتحدة العام 1951، وأنا في الخامسة عشرة من العمر، كنت ما أزال متبتلاً كلياً ومعاشرتي الفتيات معدومة. حتى إن أفلاماً مثل «قطاع الطرق» «ومبارة تحت الشمس» وحتى «فابيولا» المسرحية ذات الأزياء التاريخية التي تمثل فيها ميشيل مورغان، وقد رغبت رغبة شديدة في مشاهدتها، كانت محظورة عليَّ بحجة أنها «غير مناسبة للأطفال».[5]

مستلة من كتاب **خارج المكان** ويصفها إدوارد سعيد كما يلي «أسفل: زفاف أليف موسى، شقيق والدتي البكر في حيفا، 1946، جدتي لأمي، منيرة تعتمر العمامة وتقف مباشرة أمام ابنها العريس».

وإذا عدنا إلى عامل الأسرة، سنجده يلعب دوراً أساسياً في تمكين إدوارد سعيد من تربية عاطفية تقليدية، من خلال علاقته الوطيدة بأمه من جهة، وعلاقته المتوترة بأبيه من جهة ثانية ... .

3. بعض عناصر التربية العاطفية التقليدية من منظور الأم

إن المتفحص لمذكرات إدوارد سعيد سيجد أن شخصية الأم كان لها دور مؤثر بهذا الشكل أو ذاك في سيرة حياته ... لقد كانت هي الرفيقة الأقرب إليه خلال ربع قرن من حياته. ولا يخفي إدوارد سعيد تأثره بالعديد من وجهات نظرها وعاداتها ... من قلق يشل إرادتها إزاء تعدد احتمالات التصرف، وعدم استقرار عميق الجذور، يضارعه مخزون لا ينضب من الحيوية الذهنية والجسدية، واهتمام عميق بالموسيقى واللغة وبجماليات المظهر والأسلوب في الشكل، وربما ميل متضخم إلى الحياة الاجتماعية بتياراتها، وما تحمله من طاقة على السعادة والحزن، ونزوع لا يرتوي إلى تنمية الوحدة بما هي شكل من أشكال الحرية والعذاب في آن معاً.

غير أن اللافت للنظر أن حديث الأم مع ابنها بخصوص قضايا التربية العاطفية، عادة ما يتسم بالنفور كلما ورد موضوع الجنس أو العلاقات الجنسية في حديثهما. فقد كان حديثها عن إيفا -عشيقة ابنها- يتلازم عندها بغضب غير مفهوم. من هنا كان إدوارد -في مثل هذه الحالات الحرجة- يحاول تجاهل شعور ملح بأنه يعنيها بمعنى ما، حتى وإن تظاهرت بأنها غير معنية بعلاقة ابنها بإيفا عشيقته ... أما مصدر هذا الغضب، فيجد له أكثر من سبب في طبيعة علاقتها بابنها؛ فحبها له يعني أنها تعتبر أي ارتباط عاطفي آخر انتقاصاً من سيطرتها عليه، وإبدالاً لا تطيقه بأي حال من الأحوال.

إنها نموذج الأم التقليدية جداً في تصورها لطبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة، بحيث تعتقد أن آخر مطاف تنتهي إليه كل علاقة غرامية وجوباً هو الزواج، على الرغم من اشمئزازها من الجنس، وتصورها أن الزواج نشاط هامد وغير مبهج أساساً، يُفترض به أن يدوم إلى الأبد؟

ومن جهة أخرى، فقد كان إدوارد سعيد على غير اقتناع بفحوى هذا التصور، حيث يغدو الزواج هو أفق كل تربية جنسية (حسب تعبير غوته)، رافضاً، بطريقة طفولية، الاعتراف بأن الزواج هو المآل المنطقي لعلاقته بإيفا التي دامت أكثر من سنتين.

ولقد ظل إدوارد سعيد محافظاً على إيقاع علاقته بإيفا طوال سنتي (1957 - 1958) قبل الذهاب إلى هارفارد لمتابعة دراساته العليا. كما ظلت علاقاتهما الجسدية متقدة ولكنها غير متحققة؛ «لأن كلينا يفكر أننا إذا اجتزنا ذلك الخط الأحمر صرنا زوجاً وزوجة بالمعنى الكامل للكلمة ... خلالها صارت إيفا محاوري الجديد، وحلت محل أمي في ذلك الدور، التي سبق أن لاحظت تحول اهتمامي بها وقربي منها إلى تلك المرأة الأخرى».[6]

غير أن ما وجب تسجيله بهذا الصدد، هو رفض الأم للعلاقة الغرامية، لأنها كانت شديدة الغضب والنفور من هذا الأمر. أما حينما طلبت منها إيفا إقناع سعيد بضرورة الزواج من ابنها، فنجدها تبدي رفضها بطريقة غير مباشرة، بدعوى أن ابنها لا يستطيع تحمل مسؤولية الزواج، وأنه شخص لا يعتمد عليه ... وبهذا الرفض غير المبرر، تستعيد أم سعيد ابنها للمرة الثانية، وتنتزعه من حضن إيفا، بعدما ظنت أنه انفصل عنها، وإلى غير رجعة. غير أن الجديد هذه المرة، أن أمه جعلته ينظر إلى علاقته بإيفا نظرة جديدة، ولكنها سلبية.

وعليه، فلا هو مؤهل لتحمل مسؤولية مؤسسة الزواج كما تقتضيه العادات والتقاليد، ولا هو قادر على إقناع إيفا بالحفاظ على العلاقة كما كانت (علاقة غرامية فقط) ... وهنا تجلت مظاهر التردد والارتباك في تصور إدوار سعيد لمفهوم العلاقة الجنسية، حيث شكل تصوره هذا انقلاباً على الأعراف والتقاليد والعادات ... لتؤول تلك العلاقة المتقدة بفعل تعدد وجهات النظر المختلفة والمتضاربة (الأم/إيفا/سعيد) إلى قصة حب جميلة في «دفتر العمر» تحكي ذكريات حب مقطوع لم تكتمل أطوار فصوله، ولم ينته نهاية سعيدة كما في أحلام الفتيان والفتيات.

يعيدنا هذا الحديث إلى المقولة الذهبية الشهيرة: «ليس هناك حب سعيد» ... وذلك ما عبر عنه في سياق آخر الشاعر الفرنسي لويس أراغون في مرحلة عصيبة كانت تمر بها علاقته بإلزا (Elsa) بداية 1943، وذلك لسبب واحد هو أن مفاهيم الرجل والمرأة حول هذا الموضوع، هي أكثر تباعداً وتعارضاً في جوهر تصور هذه العلاقات ... .

فبعد سنوات أرته أمه قصاصة خبرية في الأهرام تعلن خطبة إيفا إلى ابن عمها، الأمر الذي حرك في سعيد رغبة في تعويض هذا الحدث العاطفي المؤلم في حياته، ليقوم بمغامرة زواج فاشلة في

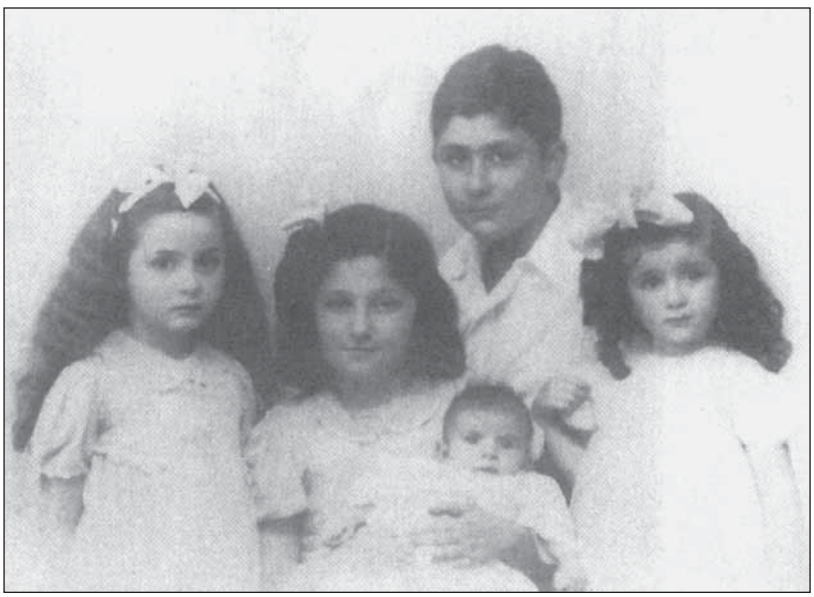

مستلة من كتاب **خارج المكان** ويصفها إدوارد سعيد كما يلي «صورة عائلية حوالي 1946- 1947. من اليسار جين، روزي، أنا في الحادية عشرة، جويس، الطفلة غرايس».

ذاك الأسبوع (كرد فعل)، ولكن حقيقة زواجه الأول كان قصيراً وبائساً، «وهو ما عمّق من شعوري المُحبِط بأني لا أستحق إيفا، التي لم ألتقها مجدداً خلال السنوات الأربعين التي تلت».[7]

ويبدو أن للأب وجهة نظر أخرى في طبيعة تأهيل إدوار سعيد، كيما يصبح في مستوى تحمل المسؤولية، بعيداً عن أحضان والدته التي يرتبط بها ارتباطاً شديداً. فقد قرر الأب، وبكلفة باهظة، إرسال أربعة من أبنائه للدراسة في الولايات المتحدة الأمريكية (اكتفت شقيقاته بالكلية فقط).

مستلة من كتاب **خارج المكان** ويصفها إدوارد سعيد كما يلي «صورة عائلية لمناسبة عيد زواج والدي الخامس والعشرين. في الصف الأمامي: جويس، هيلدا، وديع، غرايس. الصف الخلفي: أنا وروزي وجين».

فكلما أمعن سعيد في التفكير في ذلك، ازداد اقتناعاً بأنه كان يعتقد أنْ لا أمل له في أن يصير رجلاً إلا إذا صرَم علاقته بالعائلة، ثم إن بحثه عن الحرية، وعن تلك الذات المتوارية خلف «إدوارد»، ما كان ليبدأ أصلاً لولا ذلك الصَّرْم؛ لذا عليه أن يرى إليه بما هو حدث سعيد، على الرغم مما أورثه من وحدة وتعاسة لفترات طويلة جداً.

إن الدرس البليغ الذي يتوجب على المتلقي أن يكون مدركاً لفحواه في هذه المذكرات: أنه من الخطأ الحديث عن كيفية تعلمنا كيف نحب ونتلذذ، ونكون سعداء، لأننا لا نتعرف على هذه الحقيقة إلا في وقت متأخر، أي في نهاية كل علاقة عاطفية ... وهذا ما يؤكده صاحب **مجنون إلزا** (لويس أرغون): "إن زمن التعرف على كيفية أن يعيش الإنسان الحياة، لا تأتي إلا في لحظات متأخرة».

في النهاية، نجد أنفسنا أمام بورتريه كاتب كبير، يعترف بجرأة نادرة أنه مهووس بالحب دون أن يستطيع أبداً إشباع هذه الرغبة المتقدة في دواخله. أما إيراد تلك العلاقات الحميمة في هذه المذكرات، فليس الهدف منها جذب القارئ وأسره، على الخصوص أن كل ممنوع مرغوب فيه، ولكن تناول هذه المسائل ذات البعد الجنسي في هذه المذكرات، يتجاوز الرؤية الشبقية البسيطة، ليتم طرحها في سياق سوسيوثقافي، يجعل منها إشكالات ذات بعد خطير في تكوين الأفراد والجماعات في وطننا العربي. وهنا يقودنا مفهوم التربية العاطفية صعداً إلى «رواية التعلم» (*Livre d'apprentissage*)، وهو استراتيجية كل كتابة في هذا المجال بالضبط. فمن منظورنا الخاص، إن الهدف من نقل خبرة عاطفية ما ثلاثي الأبعاد: الوصول إلى معرفة علمية، وإيروسية وثقافية بخصوص هذا الموضوع الشديد الحساسية في ثقافتنا العربية.

كاتب من المغرب

الهوامش:

1 لا بد من التنبيه إلى أننا نفضل مصطلح «البوح» أكثر من مصطلح «الاعتراف»، فالاعتراف -كما هو متداول- يعود إلى المرجعية القانونية الجنائية أحياناً، والمرجعية المسيحية أحياناً أخرى، وفي الحالتين يصدر المفهوم عن خطأ مرتكب يقتضي الاعتراف، في حين لا يصدر البوح عن مثل تينك المرجعيتين.

2 إدوارد سعيد: **خارج المكان (مذكرات)**، ترجمة: فواز طرابلسي، دار الآداب، بيروت، ط:1، 2000، ص 12.

3 المرجع نفسه، ص 23.

4 عبد السلام مصباح. «عن السيرة الذاتية في الكتابة العربية»، **مجلة الكرمل**، العدد 61، خريف 1999، ص 113.

5 إدوارد سعيد. **خارج المكان**، مرجع سابق، ص 100.

6 المرجع نفسه، ص 313.

7 المرجع نفسه، ص 315.